

تأثير عزلة الوباء على إبداع الأدباء

د. عبد الله مختاري

جامعة حسيبة بن بوعلي بالشلف - ah.mokhtari@univ-chlef.dz

تاريخ القبول: 2022/11/09

تاريخ المراجعة: 2022/11/02

تاريخ الإيداع: 2022/06/16

ملخص

نسعى في هذه الورقة البحثية إلى دراسة أثر العزلة التي فرضتها جائحة (كوفيد 19) أو ما يُعرف بوباء كورونا على عملية الإبداع الفكري بما فيه الأدبي، من خلال استكناه العوامل التي تخلقها العزلة لدى المبدع فتشكل دافعاً له إلى عملية الإبداع، كما نهدف إلى المقارنة بين أثر العزلة الإيجابية والعزلة الاختيارية على عملية الإبداع، وإلى تحديد موقع الأديب من مجتمعه في ظل هذه القضية التي شغلت الناس جميعاً فصارت قضية اجتماعية.

الكلمات المفتاحية: إبداع أدبي؛ عزلة؛ خلوة؛ كورونا؛ كوفيد 19؛ حجر صحي.

*The effect of the isolation of the epidemic on the creativity of writers***Abstract**

In this research, we seek to study the effect of the isolation imposed by the (Covid-19) pandemic, or what is known as the Corona epidemic, on the process of intellectual creativity, including literary, by uncovering the factors that isolation creates for the creator and drives him to the creativity process, We also aim to compare the effect of compulsory isolation and voluntary isolation on the creative process, and to determine the author's position in his community in light of this issue that preoccupied all people so it became a social issue.

Keywords: Literary creativity, isolation, seclusion, Corona, Covid 19, quarantine.

*L'effet du confinement sur la créativité des écrivains***Résumé**

Dans cette recherche, nous cherchons à étudier l'effet de l'isolement imposé par la pandémie (Covid-19), ou ce que l'on appelle l'épidémie de Corona, sur le processus de créativité intellectuelle, y compris littéraire, en découvrant les facteurs que l'isolement produit sur le créateur et le pousse à créer. Nous visons également à comparer l'effet de l'isolement obligatoire et de l'isolement volontaire sur le processus de création, et à déterminer la position de l'auteur dans sa communauté à la lumière de cette question qui préoccupe tout le monde, il est devenu un problème social.

Mots-clés: Créativité littéraire, isolement, corona, Covid 19, quarantaine.

المؤلف المرسل: د. عبد الله مختاري، ah.mokhtari@univ-chlef.dz

1- تمهيد

شكّل ما يُعرفُ بفيروس كورونا ظروفاً استثنائيةً في العالمِ كلّهِ؛ حيثُ غيّرَ هذا الوباءُ نظامَ الحياةِ الطبيعيّ الذي أُلّفهُ النَّاسُ، فاضطرَّ كلُّ فردٍ إلى تغييرِ عاداته ونشاطاته اليومية، مجبراً على هذا التغييرِ لا رغباً فيه، وبذلك وجد كثيرون أنفسهم في شبه عزلةٍ غالباً وفي عزلةٍ تامّةٍ أحياناً، وهو أمرٌ لا ريبَ أن له تأثيراً نفسياً كبيراً واضحاً وجلياً لانعكاسه على أفكار وسلوكيات أفراد المجتمع، والكاتب أو الشاعر أو الناقد أو الباحث جزء من هذا المجتمع يتأثر كغيره من الأفراد، فيضطر هو كذلك إلى الدخول في عزلةٍ أو خلوةٍ قد تكون إيجابية بالنسبة إليه أكثر منها سلبية، فهي وإن منعت من العديد من نشاطاته المعتادة إلا أنها لا تستطيع منعه من ممارسة نشاطه الفكري، بل إنها تكون دافعاً إلى زيادة هذا النشاط، فما علاقة عزلة الوباء بالإبداع؟ وكيف تساهم في خلقِ عوامله الدافعة إليه؟ وهل العزلة الإيجابية والعزلة الاختيارية أمر واحد بالنسبة للأديب المبدع؟ وما موقع الأديب من مجتمعه في ظلّ هذه القضية التي شغلت النَّاس جميعاً فصارت قضية اجتماعية؟.

2- عوامل الإبداع التي توفرها العزلة فتدفع إليه دافعاً

تكمُن علاقة العزلة بالإبداع في بعض العوامل التي تخلّقها العزلة لدى المبدع فتشكّل دافعاً له إلى عملية الإبداع وتحفّزه عليها تحفيزاً، فبالعزلة يكون ما لا يكون بالمخالطة، والفرد المعتزل ليس كالفردي المخالط، إذ يتوفّر للأول ما لا يتوفّر للثاني، وفيما يلي استكناه لتلك العوامل وسرد وشرح لها.

1- 2- العزلة سبيل إلى التفكّر للتفكير

تَشقُّ العزلة على الدّماء؛ لأنّ الواحد منهم يجد وحشة في نفسه يسعى إلى الهروب منها بمخالطة غيره والاستئناس بهم، فالإنسان اجتماعي بطبعه، يجد راحته في التّواصل مع غيره، ليملاً الفراغ الذي بداخله، بينما فئة الفلاسفة والمتصوّفة والمفكرين والأدباء والباحثين هي الاستثناء، إذ إنّها تستمتع وتتلذذ في خلوتها لامتلاء صدور أفرادها بالعلم، فهم يعيشون في خيالهم مع أفكارهم، يستأنسون بما يقع في خواطرهم، يغوصون في أذهانهم، يتعمّقون في أفئدتهم، يلتهمون بأرواحهم، يكتشفون أنفسهم، وما سبيلهم إلى هذا إلا تلك الطمأنينة التي تمنحها العزلة لقلوبهم، "ولذلك قيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة؟ فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم في قلوبهم؛ ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة... ولذلك قال بعض الحكماء: إنّما يستوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيكثُر حينئذ ملاقاته النَّاس ويترد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة"⁽¹⁾، فالعزلة إذن عامل تحفيز لهم على الذّهاب بعيداً في التّفكير، خاصّة الأديب الذي يقف أمام عقله حاملاً وجدانه بين يديه ليعبر بالأول عن مكنونات الثاني ويستخرج ما يختلج في ذاته عبر خياله وملكته اللغوية القابضين داخل عقله.

2.2- العزلة سبيل إلى الراحة النفسية المؤدية للإبداع

يتطلّب الإبداع الفكري بما فيه الأدبي صفاء الصّدر من الهموم والمشاكل اليومية التي قد يلاقيها المبدع عند مخالطة النَّاس، وصفاء ذهنه من التّفكير في تلك الهموم، وإن كانت بعض الهموم هي المحفّز - حقيقة - للإبداع في أحيان كثيرة، خاصّة إذا كانت مرتبطة بالأمر العاطفيّة، إلا أنّ ما نقصده بالهموم هنا هي المشاكل المرتبطة بالأمر المعيشية والأذى الذي قد يتعرّض له المبدع في عمله مثلاً، أو من قبل جيرانه أو أقاربه وهكذا، وقد أشار أبو حامد الغزالي إلى بعض ذلك أثناء تعديده لفوائد العزلة، فكان ممّا ذكر: "الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرّض لأخطارها... الخلاص من شرّ النَّاس؛ فإنهم يؤذونك مرّةً بالغبية

ومرة بسوء الظن، والتهمه بالافتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة أو الكذب... ولا شك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسيء الظن به... أن ينقطع طمع الناس عنك وينقطع طمعك عن الناس... الخلاص من مشاهدة النقاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم⁽²⁾، فإن سلم صدر المفكر وذهنه من انعكاسات ما ذكر تفرغ للإبداع في ميدانه سواء أكان ميدان الأدب أو غيره من العلوم والفنون.

3.2- العزلة سبيل إلى الإحساس بضرورة استثمار الوقت

عندما يتفرغ المفكر في عزلته من كل الالتزامات أو بالأحرى من بعض أو جل الالتزامات وينفرد بنفسه داخل بيته أو في مكان عزلته الذي يقيم فيه فإنه يحس بالوقت يمر متداولاً عكس الحال الذي يكون فيه مشغولاً بأعمال ما، إذ يمر الوقت متسارعاً إلى درجة عدم الإحساس به حينئذ، ولما يحس بالوقت يدرك أهميته، وحين إدراك أهميته يسعى إلى قضائه فيما ينفعه، ولا شيء أنفع للمبدع من إبداع نصوص أدبية يضيفها إلى سجله الإبداعي حين يكون أدبياً، ولا شيء أنفع له من إبداعات علمية يضيفها كذلك إلى سيرته البحثية حين يكون باحثاً.

وحتى الباحثين الأكاديميين من أساتذة وطلبة ممن لديهم بحوث ينجزونها ومقالات ينشؤونها، تعتبر فترة الوباء التي اجتازوها في الحجر الصحي داخل بيوتهم فرصة عظيمة لا تتكرر بالنسبة لهم؛ فهي وإن كانت سلبية لعامة الناس فإنها إيجابية لهم؛ لأن بحوثهم مرتبطة بوقت محدد، والوقت الذي وفرته فترة الوباء عندما توقفت كل النشاطات وتوقفت الحياة وقتاً كبيراً يكفي لتأليف كتب وليس مجرد بحوث محدودة الصفحات، لذا فقد أفلح وفاز فوزاً عظيماً من استغلها وأنجز ما كان عليه، وخاب وخسر خسراناً مبيحاً من ضاع وقته وضاعت منه هذه الفرصة المواتية للإبداع وإتمام البحوث العلمية.

4.2- العزلة سبيل إلى وضع هدف والسعي لتحقيقه والالتزام به

قد لا يفكر المبدع في إنشاء عمل جديد يُضاف إلى أعماله الإبداعية السابقة عندما يعيش أيامه بين الناس ويخالطهم وينهمك في أشغاله الروتينية، ولكن حينما تطرأ عليه عزلة كعزلة الوباء التي سببها فيروس كورونا covid 19 فإنها تحفز على رسم هدف يسعى لتحقيقه خلال فترة العزلة المحدودة، كأن يفكر في كتابة قصيدة أو رواية أو قصة أو أي عمل فني أدبي حينما يكون المفكر أدبياً، ليس البداية في كتابتها أو كتابة جزء منها فقط، بل يفكر في إنهاء كتابتها لتكون كاملة تامة مع نهاية فترة العزلة، وهذا يجعله يلتزم بعملية الإبداع، وكلما أبداع تشجع ليبدع أكثر، فتكون بذلك تلك العزلة المحدودة الفترة حافزاً ودافعاً له لخلق عمل أدبي إبداعي تام في صورته النهائية.

5.2- العزلة سبيل إلى الاستمرارية

ينطلب تحقيق الأمور الصعبة وقتاً وجهداً وصبراً واستمرارية، فالفكرة عندما تولد تكتب لها حياة، إن أهملها صاحبها ضاعت منه وعادت إلى العدم وإلى موتها، وإن حفظها وأعطها ما تستحقه من الانتباه والتركيز طالت حياتها لتخلد عند تدوينها، وليس هذا فقط، بل إنها تجلب معها أخواتها؛ فالأفكار تتداعي؛ كل فكرة تؤدي إلى فكرة أخرى، في شكل حلقات متسلسلة، كل حلقة تجذب الحلقة الأخرى، ولا تقع في الذهن دفعة واحدة، لذا إن قطع توارد الأفكار على الذهن شيء ما أو شوش عليه انقطعت تلك السلسلة، فيكون بعد ذلك من الصعب على المفكر المبدع العودة إلى المسار الأول، وقد لا يعود إليه أبداً، فيضطر للعودة إلى نقطة البدء لينطلق في مسار جديد قد

لا يؤدي إلى النتيجة التي كان سيؤدي إليها المسار الأول، وبالتالي فالعزلة ضمان للاستمرارية وعدم الانقطاع، وحماية لآلة التفكير من أي تعطيل أو تشويش يُنهى عملها.

وما يجعل من الاستمرارية أمراً ضرورياً كَوْنُ الكتابة "حالاً تَعَوَّرَ ذهن الكاتب عن طريق الخيال الذي تفرزه اللغة في نسيج لغوي مُفرغ على قرطاس"⁽³⁾، فحالية الكتابة تعني أن الكتابة مرتبطة بالزمان والمكان ومزاج الإنسان، فهي تتداول على ذهنه عندما يكون في وضع نفسي ما يدفعه إلى الكتابة، كغيره من الأحوال التي تترى بالنفس البشرية، من قلق واطمئنان، وسُخْط ورضاً، وخوف وأمان، وبُغْض وحب، وبأس وأمل، واكتئاب وتفاؤل، وقوة وضعف، وضيق صدرٍ وانسراح، واضطراب وسكينة... فكل هذه الأحوال النفسية لها انعكاس على الذهن، وبالتالي هي أحوال ذهنية كذلك، وكما أن لكل واحدة منها حين تصيب النفس البشرية مدةً زمنيةً، ومكانيةً ظرفيةً، فللكتاب كذلك ما لها، ولعل إقبال الكتابة على ذهن الكاتب أحياناً وإدبارها عنه أحياناً أخرى أبيض مثال على حالتها، وقد أشار ابن قتيبة إلى أن للشعر أوقاتاً يسرع فيهاأتيه ويسمح فيها أبئيه فذكر من بينها الخلوة في الحبس والمسير⁽⁴⁾، وفي هذا يضرب أحد النقاد مثلاً طريفاً، فيقول عن الكاتب إنه: "حين يكتب سطرًا فكأنما ينتف من رأسه شعراً"⁽⁵⁾، في دلالة على خمول الملكة أحياناً، وبمثل هذا حدث الفرزدق من قبل حين أقر بمعاناته في صنع الشعر أحياناً فقال: "قد علم الناس أنني فحل الشعراء، وربما أتت علي الساعة لقلع ضرس من أضراسي أهون علي من قول بيت شعر"⁽⁶⁾، والحال نفسه بالنسبة للشاعر والناثر على حد سواء.

6.2- العزلة سبيل إلى الحرية

يمنح الاكتفاء بالذات في العزلة لصاحبه الحرية، فهو يتحرر أولاً من الارتباطات الخارجية التي تفرض عليه تأدية واجبات معينة فيضطر إلى بذل جهد عضلي وذهني يشغله عن الجهد الذهني المخصص للإبداع الفكري، وبذلك تعطيه العزلة أو ما يسمى بالتباعد الاجتماعي أو الحجر الصحي خلال وباء كورونا فرصةً للتحرر والخروج من بوتقة الحصار اليومي المفروض ودوامة الضغط النفسي والتوتر، فيستطيع بذلك استغلال مواهبه الكامنة فيه، ويتمكن من إطلاق سراح أفكاره وخياله وهو محاصر الجسد والحركة داخل بيته من قبل فيروس خفي يترصد الناس دون أن يستطيعوا ترصده.

ويتحرر المكتفي بذاته في العزلة ثانياً من العلاقات الاجتماعية التي تؤثر على تفكيره؛ فعندما يتعامل إنسان مع إنسان فهذا يعني أن كياناً من الأفكار يتعامل مع كيان فكري آخر، وياحتكاك تلك الأفكار بعضها مع بعض تؤثر وتتأثر فيما بينها فيحصل نوع من التغيير الفكري لدى الطرفين، ويحدث هناك ارتباط والتزام فكري من كلا الطرفين تجاه الطرف الآخر، مثلما يحدث تشويش على أفكار كليهما، وبالتالي حينما يعتزل المرء المفكر سواء أكان أدبياً أو باحثاً أو فيلسوفاً فإن جهده الذهني كله ينصب على التفكير الإبداعي، وتكون أفكاره نقية خالصة لا حدود لها ولا عراقيل فكرية أخرى تقيدها، "فالإنسان لا يكون حقيقة نفسه إلا إذا كان بمفرده، لذلك فالكاره للعزلة كاره للحرية، إذ لا نكون أحراراً إلا في عزلتنا"⁽⁷⁾ كما قال الفيلسوف الألماني شوبنهاور.

7.2- العزلة سبيل إلى التزود بوقود الكتابة، ووقودها القراءة الكثيرة

يضطر الأديب حين العزلة إلى استبدال صداقة الكتب بصداقة الإنسان؛ حيث تدفعه مفارقة الأصدقاء والزملاء وباقي معارفه إلى البحث عن خليفة لهم، ولا ريب في أن خير خلف بالنسبة له هو الكتاب، فالكتاب خير جليس كما قال المتنبي، فمن يقرأ كتاباً كمن يجلس مع شخص ذي عقل مفكر مبدع، وفضلاً عن ما يجده القارئ في الكتب من فوائد علمية وقيم فنية، فإنها تصقل كذلك ملكته اللغوية، وتحسن لغته؛ لأن اللغة لغات؛ راقية

منطوية بلغت ما يتداني من حد الكمال، وبدائية منحة بلغت درك الاستفال، وبينهما لغة بين ذلك⁽⁸⁾، أما اللغة الأولى فهي لغة شاعرة تتجسد الروح الفنية في أصواتها وحروفها وألفاظها وصيغها وأوزانها وقوالبها، فضلاً عن نبضها بالشعور، "تتبرج بألوان الزينة فيكون لها إيقاع وإمتاع، وترفل في ثوب من الأبهة فيكون لها تحليق وإبداع، وتنبض بوثبات الشعور فيكون لها وسوسة، ورفرفة، ودغدغة، ودمدمة، ومحمة، واختيال"⁽⁹⁾، وغذاء هذا الصنف الأول من اللغة هو القراءة الكثيرة للأعمال العظيمة، لأصحابها من فحول اللغة ذوي الأقلام السيارة، والملكات اللغوية المصقولة، وعلى الموهبة والإبداع مجبولة، وأما اللغة الثانية فباعثها الابتذال والتكلف، من خلال محاولة تطويع اللغة بالجور والتعسف، دون كثرة قراءة للكتب ولا مطالعة لما في باطنها من صُحف، وكثيراً ما فتح الناقد الجزائري عبد الملك مرتاض النار على أصحابها من الأدباء المعاصرين، فاتهمهم بأنهم "يتزبون قبل أن يتعبوا، ويستعلون الأيام، ويستيطئون رفعة الذكر، فيغامرون بالإصرار على الكتابة... بلغة تُصنّف في مستوى اللغة الإعلامية الرديئة"⁽¹⁰⁾، وأما اللغة الثالثة فهي وأصحابها وسط بين اللغتين وأصحابها.

تقول القاعدة: لتكون كاتباً بارعاً ينبغي أن تكون قارئاً جيداً، فاكتساب ملكة الكتابة مرتبط باكتساب ملكة القراءة، والكاتب المبدع مطالب بأن يكون لنفسه أسلوباً، والأسلوب ليس صفة تولد مع صاحبه، ولا يمكن ابتكاره من عدم، بل هو مزية مكتسبة كغيره من المهارات أو الصناعات التي توجد لدى الإنسان قابلية اكتسابها، حيث "إن الأسلوب في تمثّلنا، وبعد طول التفكير والتأمل في أمره، بدا لنا أنه ليس من قبيل التعلم والتمرس، وإنما هو من قبيل التمثّل والتشبع والمحاكاة، في مرحلة أولى، والتفنّن والتفرد في المرحلة الناضجة من حياة الكاتب"⁽¹¹⁾، والأسلوب لا يكتسب بالتعلم والتدريب، وهذا يعني أنه لو أوتي بشخص وتمّ تعليمه النحو والبلاغة والمعجمية وبقية العلوم اللغوية أو اللسانياتية، ثم ترك ليتدرب على غير مثال سابق وليبتكر لنفسه أسلوباً في الكتابة لما استطاع تحقيق ذلك؛ لأنّ اللسانيات كأن مدى نشاطها نهاية الجملة، بينما الأسلوب، ذلك الطابع المتفرد المتسم وجوباً بالجمال الذي يطبع اللغة في انتساجها ليس لدى حدود الجملة فحسب، ولكن عبر الخطاب الأدبي كله⁽¹²⁾، وليس على مستوى الشكل أو المضمون؛ بل كليهما، لأنّ النصّ عند الأسلبة "كيان لغوي واحد بدوالة ومدلولاته، ولا مجال للفصل بينهما... من حيث إن أولها مفض إلى الآخر"⁽¹³⁾، لذلك فالأديب يحتاج إلى القراءة الكثيرة لكتابات غيره من أجل احتدائها والصياغة على منوالها فنياً وموضوعاتياً في البداية، "ولولا أن من لا يحسن الكتابة يجد ممن يحسنها معونة وإبانة عنه لما استقام له أمر ولا تم له عزم، ولحل محلّ الصور الممثلة، والبهائم المهملة"⁽¹⁴⁾ - والمعونة هنا منسوبة للمؤلف ويراد بها المؤلف - ومع ذلك لا يكتسب أسلوباً لأنه يفتقر إلى خاصية التفرد الأساسية، بل هو يكون لنفسه أرضية مهياة وصالحة للإبداع والابتكار، وحين وقوع هذين الأخيرين وتحققهما يكون قد وصل إلى التفرد، أو على الأقل يستطيع الوصول إليه بطريقة لا إرادية من خلال انصهار الأساليب التي كان قد قرأها بعضها مع بعض، ليتشكّل لديه أسلوب يمكن وصفه بالهجين يكون حصيلة لكل ذلك، وتفرده يكمن في الجمع بين أساليب عدة وإعادة تشكيلها بطريقة تمنع من أن يكون الأسلوب الحاصل صورة لأسلوب معين.

يحتاج المبدع للقراءة لأن الكتابة بالإضافة إلى أنها وليدة الموهبة، هي كذلك وليدة التناص الذي يعني التفاعل النصّي في نصّ بعينه⁽¹⁵⁾؛ أي أن النصوص التي يقرأها الأديب تؤثر فيما يكتب، وتعود من لا وعيه أو من عقله الباطن إلى ذهنه حين يهّم بالكتابة أو أثناء قيامه بها إمّا ببعض ألفاظها وتعبيراتها أو ببعض معانيها وأفكارها أو بجمعها، وعن وعي أو عن غير وعي منه، فتدخل في بناء النصّ الجديد -تسبيياً- الذي يكتبه، فيكون هذا

الأخير حصيلة انصهار نصوص بعضها مع بعض، إضافة إلى طبعها بأسلوب الكاتب المنقرد، والتناص هو أمر حتمي حسب معظم الباحثين، تقول عن ذلك صاحبة مصطلح (التناص): "إن كل نص هو عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات، وكل نص هو تشرب وتحويل لنصوص أخرى"⁽¹⁶⁾، (كل) هنا تدل على الشمول، وقد ذُكرت مرتين تأكيداً، فما من نص حسب جوليا كريستيفا وغيرها إلا وتدخل في تكوينه مجموعة من بقايا النصوص التي كانت ملكة الكاتب قد امتصتها على مهل من قبل أن يكتب نصه، ليأتي حين ذاك وقت إفرازها بطريقة تمنع من أن يكون النص الجديد هو النصوص القديمة نفسها، لذلك كله يحتاج الأديب إلى القراءة وليس لهذه الأخيرة فرصة أنسب كفرصة العزلة.

3- بين العزلة الإجبارية والعزلة الاختيارية

العزلة عزلتان، عزلة إجبارية يُدفع إليها الشخص دفعاً، وعزلة اختيارية يلجأ إليها الشخص بمحض إرادته، لذا قد يتساءل البعض عن أثر العزلتين على الفرد، إن كان لهما التأثير نفسه أم هما مختلفتان فيه، والرأي لَدُنَّا أن العزلة بنوعها مضرّة بغير حاملي العلم - باستثناء فائدتها في إيقاف انتشار الوباء إن كانت عزلة وباء- "فالعزلة بغير عين العلم زلة، وبغير زاي الزهد علة"⁽¹⁷⁾، فهي "إنما تنفع العلماء العقلاء، وهي من أضر شيء على الجهال"⁽¹⁸⁾، أما تأثيرها بنوعها بالنسبة للمبدع الأديب أو المبدع الباحث فإيجابي مُتماتل؛ فالمبدع إن اعتزل عن رغبة منه لا شك في أنه يضطر نفسه للتخلي عنوة عن نشاطه اليومي، بينما إن اعتزل مجبراً على ذلك فقد أتت الرياح بما تشتهيئه سفنه في بحر الإبداع، خاصة وأن في مثل عزلة الوباء الإجبارية توقفت أغلب نشاطات الناس اليومية جميعاً، ولم يتوقف نشاط المبدعين اليومي فقط، وبالتالي لا يخشى المبدع من تقدم الحياة دونه، لذا يتملكه نوع من الطمأنينة فلا تلومه نفسه لتخليه عن بعض النشاط الضروري لحياته المعيشة من أجل أعماله الإبداعية؛ لأن الحال عامة والظروف مفروضة على الجميع، بل إن المبدع وهو في عزلة الوباء الإجبارية يحس بأنه هو من يتقدم لهروبه من تلك العزلة عبر بوابة أفكاره وخياله الذي يجسده في أعمال إبداعية ملموسة في حين ركن الناس لعزلتهم لعدم امتلاكهم هذا الباب الذي يمتلكه المبدع.

هذا إن كانت العزلة الإجبارية عزلة وباء منتشر تُفرض على جميع الناس في منطقة ما للحد من انتشاره، أما إن كانت العزلة الإجبارية عزلة سجن مثلاً، فالأمر حينئذ قد يكون مختلفاً من الناحية النفسية بالنسبة للمبدع؛ إذ يصحب الأولى بسطة وانسراح في النفس، بينما يصحب الثانية ضيق نفسي وربما ألم ومرارة، ولكن الإبداع في الحالين معاً لا تنطفئ شعلته بل تتوقد وتشتعل أكثر، وقد رأينا أعمالاً شعرية وأخرى نثرية كثيرة ولدت من رحم المبدعين بعد مخاض عسير داخل السجن، إلى درجة نشوء نوع أدبي يُطلق عليه أدب السجن.

4- بين العزلة الجماعية والأدب الاجتماعي

لما كانت عزلة الوباء عزلة جماعية فُرضت على الجميع وفي كل المناطق صارت بذلك قضية مجتمع، لذا كان لزاماً على الكتاب والشعراء شحذ همهم وتسخير أقلامهم لهذه القضية الطارئة، وهو ما يعبر عنه الكاتب المصري عزّة بدر بقوله: "الكلمة هي الحصن والأمان للمبدع وللشعرية عامة، الأزمات تجعل الكاتب مرهفاً ومتحمساً للدفاع عن قضية، وقضيتنا الآن هي البشرية، أعيش بالقلم، أحياء على الورق وأزرار الكمبيوتر، أرى أن هذه العزلة مدعاة للتأمل والتوحد مع الذات، والكتابة مهمتها الانتصار للحياة"⁽¹⁹⁾، فالكاتب -وهو يكتب- لا تخلو كتابته من التأثيرات المجتمعية، فالعلاقة بين الكاتب ومجتمعه فضلاً عن أنها علاقة التزام -إن كان الكاتب ملتزماً- فهي علاقة حتمية كذلك إن ادعى هو أو ناقده أنه غير ملتزم ولا متأثر بمجتمعه.

إذن القضية هنا لها وجهان؛ إما أن يكون الكاتب وفيًا لمجتمعه عن إرادة منه، فيجعل كتاباته حاملة لمبادئ المجتمع وقضاياها، ومظاهره، ومعتقداته، وأعرافه، وعلاقاته، وأفكار ومنظورات أفرادها، وما هذا إلا امتداد لتلك النزعة القديمة قَدَم الأدب العربي حين كان الشاعر، ينظّم في سلك القصيدة الجاهلية مواضيع "يبدأها بالتشبيب أو النسب بالأطلال والديار، ويصف في أثناء ذلك حبّه، ثم يصف رحلته في الصحراء، وهي أول ما يقدمه للمرأة من ضروب جرأته، وحينئذ يصف ناقته أو فرسه، وقد يؤخّرها إلى نهاية القصيدة، ويقدم عليهما غرضه من الحماسة أو الزناء أو المديح، مفتنًا في أثناء ذلك في وصف ما يقع تحت عينه، وناثرًا حكّمه وتجاربه"⁽²⁰⁾، وذلك كله يدخل ضمن المهمة النبيلة التي كانت منوطة بالشاعر تجاه مجتمعه في عصر الأقدمين، وهي ما تزال مهمة الشاعر والناثر في عصرنا وإن على نمط كتابة مختلف، ولكن ما يهمنا في ذكر ما ذكرنا هو الالتزام بالمجتمع عن إرادة من الكاتب.

والوجه الثاني أن تفرض التأثيرات المجتمعية المحيطة بالكاتب نفسها عليه بالقوة ولو عن غير رغبة منه أو مع محاولة تملص وانفلات، وبالتالي فالعلاقة بين الكاتب والمجتمع حتمية، "فكما أن الكاتب يأخذ من المجتمع، وهذا محتوم... فإنه في الوقت ذاته يُثري مجتمعه بفضل ما أوتي من عبقرية ذاتية"⁽²¹⁾؛ أي أنه يتأثر حتمًا ويؤثر، وعليه "أي كتابة لا تكون ممكنة خارج إطار المجتمع، وإلا فهي الفناء عينه"⁽²²⁾، والتوجه نفسه يذهب إليه رولان بارت Roland Barthes حين يقول: "أما الكتابة فهي وظيفة، وهي العلاقة بين الإبداع والمجتمع"⁽²³⁾؛ أي أن بارت لم يقل عن علاقة الكتابة بالمجتمع إنها ذات طابع حتمي فحسب، بل جعلها هي نفسها العلاقة بين الكاتب المبدع والمجتمع، وملخص الرأي كله أن للمجتمع على الكاتب سلطانًا مبيّنًا.

إذن لا عيب في اجتماعية الكتابة بما أنها حتمية، فلا كاتب "يسهل عليه أن يقوم مقام الحيدودة من عصره ومجتمعه وسيرورة التاريخ، وإلا فما الكتابة؟ ولم يكون الكتاب؟... لا توجد، إذن، أي حيدودة، في أي شكل من أشكالها في العالم؛ لا في السياسة ولا في الكتابة، بل ولا في العلم أيضا"⁽²⁴⁾، فالذات البشرية في جانبها النفسي والفكري هي أصلاً حصيلة تأثيرات مجتمعية معينة شبت وشابت في محيطها، فدخلت الثانية في تكوين الأولى.

وبالعودة إلى وباء كورونا نجد أن هذا الأخير تسلل إلى نظم الشعراء كتسلله بين أفراد المجتمع، وانسل إلى مخيلات وقرائح أولئك كأنسلا له إلى رئات هؤلاء، فتمثل في أشعارهم وصار موضوعًا للقول والإبداع، فهذا الناقد الجزائري عبد الملك بومنجل يقول قصيدة بعنوان "حزن المآذن" يبرز فيها الحزن الذي أصابه وأصاب بني مجتمعه من المسلمين بسبب مفارقة المساجد التي أغلقت ضمن إجراءات الحجر الصحي المفروض كبحًا لانتشار وباء كورونا، وهي قصيدة من ثلاثة عشر بيتًا يقول في أبياتها الأربعة الأولى⁽²⁵⁾:

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| ما للمآذن في أحداقها الألم | تهفو إلينا وقد طافت بها الظلم |
| وللآذان وقد غامت بشاشته | لما رأنا صحو البيت نلتزم؟ |
| تشكو المآذن، تشكو مرّ فرقتنا | يا حرّ وجدّ نعاني الآن، نصطلم! |
| يبكي الأذان، وتبكي الروح وامقة | وتشعرُ الفقد عين المرء والقدم |

ويقول الشاعر العراقي عمر عنّاز معبرًا بطريقة غير مباشرة عن حزنه ومواسيًا نفسه لرؤية بيت الله الحرام خاليا من زواره بسبب الوباء⁽²⁶⁾:

خلا من زائريه البيت، قالوا

فقلت: أراه مُزدهمَ الفناءِ

فسيحاً، غادرتُهُ الناسُ كيما

تطوفُ به ملائكةُ السماءِ

بينما نظمَ الشاعرَ التونسيَّ عبد العزيزَ الهماميَّ قصيدةً شعريةً يحضُّ فيها على ضرورة الالتزام بالحجرِ الصحيِّ المنزليِّ ويرغبُ فيه، جاء في مطلعها(27):

فلتدخلِ بيتكَ لو تسمعُ

العالمَ موبوءً

وهواءُ الشارعِ يجرحُ

المنزلُ وردتكِ الأولى

ومكانك في الغرفةِ أوضحُ

في حين اهدت قريحة الشاعر السوري الراحل خالد جميل الصدقة إلى إبداع قصيدة على وزن معلقة الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم أسماها "المعلقة الكورونية"، وشاء القدر بعد ذلك أن يرسل متأثراً بالوباء الذي كتب فيه القصيدة، وهي قصيدة عرفت انتشاراً واسعاً على شبكة الأنترنت، قال في بدايتها(28):

ألا هبِّي بكمامٍ يقينا

فنحن اليوم في قفصٍ كبيرٍ

إذا ما قد عطسنا دون قصدٍ

وإن سعلَ الزميلُ ولو مُزاحا

وباءٌ حاصرَ الدنيا جميعا

هذه عينات من شعر كثير قيل في زمن جائحة كورونا أو ما يطلقُ عليه (كوفيد 19) ابتدعها أصحابها

متأثرين بالوضع الذي فرضه هذا الفيروس فشكّل عامل دفع لآلة الإبداع، ولم يتناول النتاج الأدبي في هذه الفترة الوباء فقط كموضوع له، بل بقيت مواضيعه متعددة لا حصر لها كأيامه العادية.

5- خاتمة

نخلصُ في نهاية هذه الورقة البحثية إلى أنّ العزلة أمر إيجابي جداً للإبداع الأدبي؛ حيث إنها توفر الظروف المناسبة لخلق دوافع الإبداع التي نلخصها فيما يلي:

✓ التفرغ للتفكير.

✓ الراحة النفسية.

✓ الإحساس بضرورة استثمار الوقت.

✓ وضع هدف والسعي لتحقيقه والالتزام به.

✓ الاستمرارية.

✓ الحرية.

✓ التزوّد بوقود الكتابة، ووقودها القراءة الكثيرة.

كما أنّ عزلة الوباء الإجبارية كان لها التأثير نفسه مع العزلة الاختيارية التي كثيرا ما يضع المبدعون أنفسهم فيها من أجل تحريك آلة الإبداع لديهم، فالمبدع الأديب أو الباحث متعود على العزلة ومحصن بفكره وعقله ضد سلبياتها؛ حيث إنه يتمكن من تطويع عزلته وإن كانت إجبارية، من خلال تعزيز قراءاته ومدركاته ومعارفه ومكتسباته، وتفجير موهبته الإبداعية بنشاط استثنائي ربما لم يتح له من قبل في دوامة الحياة وضغوطها الكثيرة، وهو بذلك يحافظ على مكانته من المجتمع وهو في عزلته، بل ويعززها من خلال مسايرة إبداعه لظروف المجتمع وطوارئه.

6- قائمة المصادر والمراجع

- 1- أرتور شوبنهاور (2018م)، فن العيش الحكيم، تر: عبد الله زارو، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر.
- 2- أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (1341هـ)، أدب الكتاب، تح: محمد بهجة الأثري، المكتبة العربية، دط، بغداد.
- 3- أبو حامد الغزالي (2005م)، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، ط 1، بيروت.
- 4- داليا عاصم، الزمن الكوروني يفرض مناخات جديدة على الكتاب العرب، جريدة الشرق الأوسط، العدد 15100، 01 أبريل 2020.
- 5- ابن أبي الدنيا (1997م)، العزلة والانفراد، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار الوطن، ط 1، السعودية.
- 6- رولان بارت (2002م)، الكتابة في درجة الصفر، تر: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط 1.
- 7- أبو سليمان الخطابي البستي (1990م)، العزلة، تح: ياسين محمد السّواس، دار ابن كثير، ط 2، بيروت.
- 8- شوقي ضيف (د ت)، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 11، القاهرة.
- 9- عبد العزيز الهمامي، كورونا، مجلة الكلمة، العدد 156، أبريل 2020.
- 10- عبد الله محمد الغدامي (1998م)، الخطيئة والتكفير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 4، مصر.
- 11- عبد الملك مرتاض (2003م)، الكتابة من موقع العدم، دار الغرب، د ط، وهران.
- 12- عبد الملك مرتاض (2009م)، قضايا الشعريات، دار القدس العربي، ط 1، وهران.
- 13- فتح الله أحمد سليمان (2004م)، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب، د ط، القاهرة.
- 14- أبو فرج الأصفهاني (2008م)، الأغاني، تح: إحسان عباس وآخرون، دار صادر، ط 3، بيروت.
- 15- ابن قتيبة (د ت)، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، د ط، القاهرة.
- 16- محمد بنيس (1996م)، الشعر العربي الحديث، دار توفيق، ط 2، المغرب.
- 17- يوسف وغيلسي وآخرون (2018م)، عاشق الضاد: قراءات في كتابات العلامة عبد الملك مرتاض، جسر، ط 1، الجزائر.

مواقع إنترنت

- 18- عبد الملك بومنجل، مارس 2020، حزن المآذن،
<https://www.facebook.com/photo?fbid=10218543319026804&set=a.10212558088959793>
- 19- عمر عناز، مارس 2020،
https://twitter.com/nirgal_iq/status/1236008861347254272
- 20- <https://cutt.us/wFTaW>

7- الهوامش

1. أبو حامد الغزالي (2005م)، إحياء علوم الدين، دار ابن حزم، ط 1، بيروت، ص 693 - 694.
2. المصدر نفسه، ص 699 - 702.
3. عبد الملك مرتاض (2003م)، الكتابة من موقع العدم، دار الغرب، د ط، وهران، ص 96.
4. يُنظر: ابن قتيبة (د ت)، الشعر والشعراء، تح: أحمد محمد شاكر، ج 1، دار المعارف، د ط، القاهرة، ص 81.
5. عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 131.
6. أبو فرج الأصفهاني (2008 م)، الأغاني، تح: إحسان عباس وآخرون، ج 21، دار صادر، ط 3، بيروت، ص 256.

7. أرتور شوينهاور (2018م)، فنّ العيش الحكيم، تر: عبد الله زارو، منشورات الاختلاف، ط 1، الجزائر، ص 182.
8. عبد الملك مرتاض (2009م)، قضايا الشعرية، دار القدس العربي، ط 1، وهران، ص 153.
9. يوسف وغيلسي وآخرون (2018م)، عاشق الضاد: قراءات في كتابات العلامة عبد الملك مرتاض، جسور، ط 1، الجزائر، ص 189.
10. عبد الملك مرتاض، قضايا الشعرية، ص 204.
11. عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 92.
12. المصدر نفسه، ص 90.
13. فتح الله أحمد سليمان (2004م)، الأسلوبية مدخل نظري ودراسة تطبيقية، مكتبة الآداب، د ط، القاهرة، ص 32.
14. أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (1341هـ)، أدب الكتاب، تح: محمد بهجة الأثري، ج1، المكتبة العربية، د ط، بغداد، ص 22.
15. يُنظر: محمد بنيس (1996م)، الشعر العربي الحديث، ج 3، دار توفال، ط 2، المغرب، ص 181-187.
16. (نقلا عن: عبد الله محمد الغدامي (1998م)، الخطيئة والتكفير، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 4، مصر، ص 326.
17. ابن أبي الدنيا (1997م)، العزلة والانفراد، تح: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار الوطن، ط 1، السعودية، ص 21.
18. أبو سليمان الخطابي البستي (1990م)، العزلة، تح: ياسين محمد السّوّاس، دار ابن كثير، ط 2، بيروت، ص 225.
19. ورد هذا الكلام إلى جانب تصريحات كتاب آخرين مدحوا جميعاً الأثر الطيب للعزلة على قريحتهم الإبداعية في مقال بعنوان: "الزمن الكوروني يفرض مناخات جديدة على الكتاب العرب" للكاتبة الصحافية داليا عاصم في جريدة الشرق الأوسط، العدد 15100، 01 أبريل 2020.
- هذا وقد وَقَعْنَا خلال البحث على مقال آخر بعنوان: "الموسم الأدبي في فرنسا لم يتأثر كثيراً بكورونا" نُكِرَ فيه أن النتاج الأدبي في فرنسا لم يتأثر رغم إجراءات الحجر، وهذا يثبت أن الإبداع الأدبي لم يتأثر بعزلة الأدياء وسار على نهج المعتاد، بل ربما يكون قد سار بزخم أكبر، يُنظر: الميادين نت، 28 أوت 2020، "الموسم الأدبي في فرنسا لم يتأثر كثيراً بكورونا"، <https://www.almayadeen.net/news/culture/1419340>
20. شوقي ضيف (د ت)، تاريخ الأدب العربي - العصر الجاهلي، دار المعارف، ط 11، القاهرة، ص 219.
21. عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 98 - 99.
22. المصدر نفسه، ص 99.
23. رولان بارت (2002 م)، الكتابة في درجة الصفر، تر: محمد نديم خشفة، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، ص 21.
24. عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم، ص 138.
25. عبد الملك بومنجل، مارس 2020، حزن المآذن، <https://www.facebook.com/photo?fbid=10218543319026804&set=a.10212558088959793>
26. عمر عّاز، مارس 2020، https://twitter.com/nirgal_iq/status/1236008861347254272
27. عبد العزيز الهمامي، كورونا، مجلة الكلمة، العدد 156، أبريل 2020، <http://www.alkalimah.net/Articles/Read/21166>
28. <https://cutt.us/wFTaW>